

ياسين حكان* | Yassine Haggan

الهجرات النسائية الجديدة في أفريقيا: المحددات والديناميات

New Women's Migrations in Africa: Determinants and Dynamics

عنوان الكتاب:	الهجرات النسائية الجديدة في أفريقيا: المحددات والديناميات.
المؤلف:	رشيد بن بيه.
الناشر:	الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
سنة النشر:	.2021
عدد الصفحات:	.440

* باحث في علم الاجتماع، حاصل على الماجستير في الهجرة والديموغرافيا والتنمية من جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب.
Research in Sociology, He received a Master's degree in Migration, Demography and Development from Ibn Zohr University in Agadir, Morocco. Email: yassine.haggan@gmail.com

مقدمة

في المغرب، من دون إثارة موضوع التحول النيوليبرالي المفروض على بلدانهم، يعلن المؤلف، في مقدمة كتابه، أنه يريد التلخص من هذه التقاليد البحثية التي أفرزت صورة نمطية بشأن أدوار النساء في الهجرة. وبعد أن عرض الأدبيات التي تناولت موضوع الهجرة من دول الساحل وجنوب الصحراء إلى المغرب، والتي لم تُبدِ اهتماماً بالتربة السوسيو-اقتصادية والسياسية التي ولدت هذه الهجرة، بيّن أن توظيف مصطلحات رائجة، من قبيل "النساء بوصفهن فاعلات في الهجرة"، و"الهجرة النسائية المستقلة"، أخفى في كثير من الدراسات واقعاً سوسيو-اقتصادياً مفروضاً على أفريقيا بعد تبنيها برامج التقويم البيئي؛ ما شكّل بالنسبة إليه لحظة تفكّر نقدي.

أطروحة الكتاب وأفكاره الرئيسية

استهل المؤلف كتابه بمقدمة عامة شرح فيها دوافع اختيار الموضوع وسياقه، ولتنهينا إلى أن البحث في مجال الهجرة كان ينصبّ أساساً على دور الذكور في الهجرة؛ إذ لم يجرّ الاهتمام بدور النساء فيها إلا بعد أن بدأت باحثات العمل في مجال الهجرة النسائية (ص 61). لكن لن يكون لهذا الاهتمام أهمية، ما لم ينظر في الشروط السوسيو-اقتصادية التي أنتجت هجرة النساء؛ أي النظر الذي سيُمكن من بناء تحليلي ماكرو سوسولوجي وميكرو سوسولوجي، في الآن ذاته، لتجاوز محدودية مقارنة النوع التي لا تثير المحددات البنوية للهجرة، بل تركز على ذاتية المهاجرة، ما لا يأخذ في الحسبان سياقات الهجرة وخصوصياتها وديناميتها. ولبناء هذه النظرة الجديدة، ينطلق المؤلف من أن أغلب المقاربات التي تناولت موضوع الهجرة، قد بلورها باحثون

لا يقتصر كتاب الهجرات النسائية الجديدة في أفريقيا: المحددات والديناميات على إبراز دور النساء في سيرورة ظاهرة الهجرة في أفريقيا، والمسارات التي تتخذها النساء المهاجرات من دول الساحل وجنوب الصحراء، كما تقوم بذلك مقاربات النوع، بل يتجاوز ذلك إلى البحث في المحددات البنوية للهجرة النسائية الخاصة بالمجتمعات الأفريقية في الفترة ما بعد الكولونالية؛ ما جعله، خلافاً للأدبيات السابقة، يركز على التربة الاقتصادية والاجتماعية التي أنتجت هذه الهجرات، فقد استأثرت الهجرة النسائية بكثير من الاهتمام والنقاش العلمي، حيث أنجزت عدة دراسات وأبحاث تتخذ من هجرة النساء من دول الساحل وجنوب الصحراء إلى المغرب موضوعاً لها، والهجرة الأفريقية عموماً، من دون الاهتمام بواقع أفريقيا نفسها.

يقدم الكتاب مقارنة نقدية تستند إلى بحث ميداني اعتمد مقارنة إثنوغرافية لرصد آثار المحددات الاجتماعية والسياسات المبرمجة في أفريقيا في موجات الهجرة نحو أوروبا، مروراً بالمغرب. وقد استندت المقاربة إلى أرقام ومعطيات عززتها متابعة دقيقة لوضعية مهاجرات من السنغال، ومن الكونغو الديمقراطية، في أثناء إقامتهن بالمغرب. وتجدر الإشارة إلى أن الباحث رشيد بن بيه تعامل مع المعطيات التي توافرت له بكثير من الحذر المنهجي والإبستيمولوجي، على نحو مكث من تحديد الآثار الاقتصادية والاجتماعية لمشاريع التحول النيوليبرالي في أفريقيا، جامعاً بين الكلّي والجزئي في دراسة ظاهرة الهجرة.

خلافاً للمنجز البحثي في الهجرة، الذي انصبّ على دراسة واقع مهاجري أفريقيا جنوب الصحراء

فمفاده أن هذه الهجرة النسائية ولدت ديناميات جديدة داخل المجتمع المغربي، ذات أوجه دينية ومدنية واقتصادية (ص 34).

فصول الكتاب

يشتمل الكتاب على ثلاثة أقسام. يتعلق القسم الأول بديناميات التوافد، ويشتمل على ثلاثة فصول يقدم فيها المؤلف ميدان البحث إثنوغرافياً، بالتركيز على وضعيات المهاجرين والمهاجرات في محليات (أحياء) في مدينتي الرباط وأكادير الكبرى، بغية رصد نوعية العلاقات القائمة بينهم وبين المجتمع المحلي من جهة، وما تبرزه من صراع أو توافق من جهة أخرى، مع تحديد أنساق الدلالات المشتركة، ونوعية الميكانيزمات الاجتماعية التي تحيل عليها في بلدانها الأصلية. أنجز المؤلف إثنوغرافية مجندرة للهجرة النسائية، لرصد آثار التقويم الهيكلي في فئة النساء المهاجرات، تعتبر ظاهرة الهجرة سيروية متصلة لا تنفصل عن الإطار التاريخي المؤطر لها في السنغال والكونغو، وقد افترض وجود علاقة بين التكيف الليبرالي والهجرة النسائية. ورصد، من خلال المحكي الشفوي حول الهجرة النسائية، تطور الظاهرة والتحويلات التي وسمت مسار المهاجرات.

أما القسم الثاني، فهو يتعلق بديناميات النشاط الاجتماعي، ويعرض الوضعيات السوسيو-مهنية والعوامل الاجتماعية للنساء المهاجرات، مصنفاً مختلف أشكال حضور المهاجرات، وتشكلهن بمواصفات سوسيو-مهنية جديدة، مثل اللواتي يشتغلن في التجميل والحلاقة ومراكز الإنصات (ص 212). وتطرق، في هذا السياق، إلى آثار الهجرة والاستقرار في المهاجرات، من خلال مقابلات ميدانية معهن. وخلص إلى أن المغرب

غربيون مستندون إلى زاوية نظر متحيّزة، لكونها لا تثير مسؤولية سياسة أوروبا في تنامي الهجرة الأفريقية. وقد أنجزت بحوث ودراسات مكثفة حول الهجرة من دون اهتمام بسياسات التكيف الليبرالي وانعكاساتها السلبية على توسيع نطاق الهجرة في أفريقيا، ودورها في بزوغ أنواع جديدة من الهجرات التي يسميها الكتاب "الهجرات النسائية الجديدة".

انطلاقاً من هذا الاهتمام البحثي الأساس، حاول الكتاب الإجابة عن عدد من الأسئلة: كيف تكوّنت سيروية الهجرة من السنغال والكونغو الديمقراطية في سياق التحولات المبرمجة داخل هذين البلدين؟ وكيف تطور الوضع الاجتماعي للمرأة المهاجرة في علاقاتها بالمجتمع ومؤسساته؟ وكيف أنتجت الهجرة النسائية من هذين البلدين ديناميات جديدة داخل المجتمع المغربي؟ (ص 33) مفترضاً أن هجرة نساء دول الساحل وجنوب الصحراء تُعدّ أحد أشكال الاستجابة للتحولات الاقتصادية والاجتماعية المتولدة من الإجراءات المبرمجة في إطار سياسات التقويم الهيكلي، وأن المهاجرات يستخدمن أنواعاً من الإرث الأنثروبولوجي من أجل مواجهة إكراهات الاستقرار في بلد الإقامة، نظراً إلى الدور المحدود لبُنى المجتمع المغربي في استيعاب الهجرة الوافدة غير المبرمجة. ومع اتخاذ النساء المهاجرات مسارات الذكور نفسها، فإن الفرضية المركزية تتبّه إلى ما إذا كُنَّ يستثمرن مورد الجنس للعبور، في محاولة منهن لملاءمة وضعهن الاجتماعي مع ما يسمح به القانون، وذلك من خلال مجموعة من الاستراتيجيات مثل "فبركة" الأوراق، أو ادعاء وضع اللجوء، أو المحاجة بوضعيات اجتماعية خاصة (الحمل أو اصطحاب قاصر مثلاً). أما وجه الفرضية المركزية الثاني،

على نحو أوضح دور المنظمات الدولية في تعزيز قدراتهن القيادية. وأبرز المؤلف دور محددات أثروبولوجية، من قبيل ثقافة البلد الأصلي الأقل بطيركية، مقارنةً بما هو سائد في المجتمع المغربي، ذلك أنها أسهمت في ولادة فعل مدني بين المهاجرات مختلف عن فعل النسوية المغربية (ص 341-362). وأسهمت ظروف التشغيل في إطلاق ديناميات الشغل الجديدة التي تمثلت في التشغيل الذاتي عبر مشاريع لمهاجرات من قبيل الشغل المنزلي، والدكاكين المخصصة للحلاقة والتجميل، وغيرها، إضافة إلى أن ولوج المهاجرات العمل النقابي، ساعد في التأثير في البناء القانوني للعمل المنزلي. وقد أفضى تموقعهن في الفضاء الاجتماعي المغربي إلى اعتبارهن فاعلات مدنيات ونقائيات؛ ومن ثم، جرى تغيير في هويتهم (ص 385-396).

منهج الكتاب وعدته المفهومية

أضفى وضوح منهج الكتاب قيمةً بيداغوجيةً وعلميةً إضافيةً؛ ما مكّنه من الحسم بين الإبتيميات المتناقضة، وقد أعلن أن الذي يوجّهه هو تجاوز إبتيمية الصمت بشأن دور النساء في المجتمع عمومًا، وإبتيمية الصمت بشأن "دور سياسات الغرب" في الهجرات، وتحديدًا سياسات التقويم الهيكلي (ص 45). وفي المدخل المنهجي، اعتمد المؤلف مقاربتين للبحث في محددات الهجرة، وفهم ديناميات الهجرة عبر مقارنة إثنوغرافية؛ لهذا كان العنوان الفرعي للكتاب، "المحددات والديناميات"، مُعبّرًا عن فحوى المقاربة المعتمدة، فهو قد اعتمد الإثنوغرافيا لجمع المعطيات الميدانية، عبر التقعيد العلمي للمقاربة من خلال ذكر مكوناتها الملاحظة، والمقابلة غير المنظمة،

يوفر فرصًا مهمة لتأهيل المهاجرات اجتماعيًا، ويعيد تشكيل هوياتهن من خلال أوضاع اجتماعية جديدة. وعمل على كشف أنساق العلاقات المهاجرات الاجتماعية من خلال التركيز على تحليل العلاقة المؤسساتية التي تربط المهاجرة ببعض المؤسسات في المغرب مثل المراكز الأمنية، والمؤسسات الصحية والمدرسية، ومدى انخراطهن في مؤسسات المجتمع المدني، واستفادتهن من الخدمات الاجتماعية، ومدى نجاحهن في بناء علاقة ثقة بينهن وبين المؤسسات الإدارية المغربية (ص 263). واهتم المؤلف، أيضًا، بدراسة الخطابات المولدة للتوصيم واستراتيجيات مواجهته من قبيل وصمة اللون، ووصمة الانتماء، ووصمة السلوك الاجتماعي (ص 274-275)، وقد تجلّى ذلك في الاحتفاليات وطبيعة طقوسها، وأسلوب تقديم الذات، وتأثير القرابة في تنظيم الحياة الاجتماعية للمرأة (ص 290-296).

وأما القسم الثالث، فقد خصصه المؤلف لديناميات الفعل المنظم؛ من خلال التركيز على دينامية التدين بين ثنائية النزوع العلني والانكفاء الطائفي (الفصل الأول من الكتاب) ودينامية الفعل المدني (الفصل الثاني)، ثم دينامية التشغيل الذاتي وتطور علاقات التشغيل (الفصل الثالث). ويشرح الكاتب في هذا القسم كيف أنّ الهجرة الوافدة إلى المغرب ولدت ديناميات تدين مهمة؛ إذ بزغت زعامات دينية في أوساط المهاجرات، يتركز جهدها على التنظيم والتوجيه. وهكذا، أصبح الدين موردًا مهمًا تستخدمه المهاجرات من أجل تلبية حاجتهن الاجتماعية (ص 305-331). وقد تشكلت أولى الجمعيات النسائية والتنظيمات المدنية، عمومًا، في أوساط المهاجرات، من خلال التلاقي الحاصل بين المجتمعين المدني الدولي ومجتمع المهاجرات،

وصراعات وتغيرات"، منتقداً بذلك التعريف الذي أورده جورج بالاندييه Georges Balandier في كتاب قوة ومعنى، معتبراً أنه لا يخرج عن سياق التنميط النظري، وحجته في ذلك أن بالاندييه ربط الديناميات الاجتماعية بمقاربة بنوية ونسقية للمجتمع، وهو ما يخالف المقاربة الإثنوغرافية التي اعتمدها المؤلف (ص 68).

وقد استخدم المؤلف أيضاً مفهوم "الإرث الأنثروبولوجي" الذي اقتبسه من الباحث الفرنسي إيمانويل تود Emmanuel Todd؛ إذ ركز على الجانب الديني في هذا الإرث في دراسة الهجرة، ونظام القرابة وبُنى التضامن الجماعتي، على عكس تود الذي اعتمد على بنية الأسرة والعائلة ودورها في نقل هذا الإرث من بلد الانطلاق إلى بلد الاستقرار

بالنسبة إلى المهاجرين. واعتمد المؤلف عيّتين مختلفتين في ظاهرة الهجرة النسائية: المهاجرات من السنغال، والمهاجرات من الكونغو الديمقراطية؛ إذ يمثل الجانب الديني في الإسلام بالنسبة إلى الفئة الأولى، ويتمثل في المسيحية بالنسبة إلى الفئة الثانية. أمّا نظام القرابة، فهو أبوي بالنسبة إلى السنغاليات، وأمومي بالنسبة إلى الكونغوليات. وفي خصوص بُنى التضامن، فإن الفئة الأولى التي يسود لديها التضامن الديني يتجلى، أساساً، فيما تقوم به الزاوية التيجانية، في حين يسود في الفئة الثانية التضامن الجماعتي (ص 70). واعتمد المؤلف كذلك على مفهوم النشاط الاجتماعي مدخلاً لدراسة الهجرة، مُبرزاً الفروق بين مفهومي النشاط الاجتماعي والفعل الاجتماعي، موضحاً أن المقاربة الإثنوغرافية تركز على الاعتيادي والمتكرر في السلوك الديني والاجتماعي والثقافي، وهو ما دفعه إلى تبني مفهوم النشاط الاجتماعي L'activité sociale على حساب مفهوم الفعل الاجتماعي L'action sociale.

والتصوير الفوتوغرافي، والاستمارة الإثنوغرافية وتفصيلاتها (ص 72).

و"إيماناً بأن وضوح المفاهيم المستعملة لا يوصل بالضرورة إلى إدراك، لكن على الأقل، يخلص الباحث من التساؤلات الزائفة"⁽¹⁾، يتوقف المؤلف بإسهاب وتفصيل شديدين عند بعض المفاهيم المتداخلة التي تستعمل عادةً للإشارة إلى مدلولات مختلفة في جوهرها، مثل مصطلح الهجرة المغادرة Emigration، أو الهجرة الوافدة Immigration (ص 44). ويبيّن الفرق بين بعض المفاهيم المتقاربة في معانيها، بالعودة إلى أصولها ومضامينها، مثل مفهوم النشاط الاجتماعي L'activité sociale، ومفهوم الفعل الاجتماعي L'action sociale (ص 70-71).

في مقابل ذلك، اعتمد المؤلف حزمة مفاهيمية مهمة ستشكل المنطلقات المفهومية للعمل البحثي، هي: الهجرة والديناميات الاجتماعية، والإرث الأنثروبولوجي، والنشاط الاجتماعي، والفعل المنظم، والمعدل الصافي للهجرة؛ إذ عمل على شرحها من خلال التركيز على انتقال الهجرة من بعد التغيير إلى بعد الاستمرار، مع توضيح الفرق بين مفهوم التنقل La mobilité ومفهوم الهجرة العابرة الحدود La transmigration، وسياق تبني كل مفهوم على حدة، وما يطرحه من إشكالات إبستمولوجية على مستوى تبني المفهومين (ص 65). وتوقف المؤلف عند مفهوم الديناميات الاجتماعية، متبنيّاً تعريفاً شاملاً للمفهوم باعتباره "الواقع الاجتماعي في طور التشكل الدائم الذي تكشفه الإليات الاجتماعية المختلفة، من حوادث ووقائع

(1) عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا، ط 5 (بيروت/الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1993)، ص 129.

مهم، لأنه لا يغفل آثار الاستعمار الممتدة في الفترة ما بعد الاستعمارية، وقد سبق أن درس باحثون الهجرة من هذا المنظور⁽²⁾، إلا أن ما قدمه الباحث بن بيه يشكّل لبننةً أساسية في هذا الباب، لأنه لا يفصل الهجرة عن التجربة التاريخية للدول الأفريقية في المرحلة ما بعد الاستعمارية.

درس كتاب الهجرات النسائية الجديدة في أفريقيا ظاهرة الهجرة النسائية من خلال مقارنة نقدية، ووصف الهجرات النسائية توصيفاً دقيقاً، يُبين انطواءه على أفق معرفي ومشروع سوسولوجي، يهدف من خلاله إلى "نفص الغبار" الذي علق بسوسولوجيا الهجرة من وجهات نظر كولونiale، متجاوزاً بذلك التنميط الذي غلفت به السوسولوجيا الكولونiale. فالكتاب يطرح أسئلة إشكالية تثير مقارنات وقضايا، تتطلب إعادة النظر في الطريقة التي تطرحها الأبحاث الغربية بشأن الهجرة عموماً، والهجرة النسائية خصوصاً، فضلاً عن أنه يشتمل على قدر كبير من الحذر الإبيستيمولوجي لتعميق الأسئلة والإشكالات في الدراسات السوسولوجية والأنثروبولوجية المعاصرة؛ فيما يتعلق بالهجرة، والمجتمعات ما بعد الاستعمار.

References

(2) Nicolas Bancel et al., *Ruptures Postcoloniales: Les nouveaux visages de la société française* (Paris: La Découverte, 2010).

المراجع

واعتمد المؤلف مفهوم إرهارد فريدبرغ Erhard Friedberg للفعل المنظم الذي يرى أنه "موجود في كل مكان، حيث يجبر الاعتماد المتبادل الناس على تنظيم أنفسهم والتنسيق بينهم من أجل إنجاح تعاونهم" (ص 71). وبحسب المؤلف، يتجسّد هذا الأمر فيما تقوم به جماعات المهاجرات لتنظيم أنفسها؛ من أجل التموّج في الفضاء الاجتماعي. وأخيراً، اعتمد المؤلف مفهوم المعدل الصافي للهجرة Le solde migratoire الذي يقيس تطورات الهجرة في كل بلد (معدل المغادرين قياساً بالوافدين) خلال فترة زمنية طويلة، ليبيّن أن البلدان الأفريقية سجّلت معدلاً هجرة سلبياً، بعد تطبيق برامج التقويم الهيكلي التي ما زالت الدول الأفريقية تسير وفق توجهاتها، وإنّ تغير مفهوم التقويم الهيكلي بمسمّيات أخرى، وقد استند المؤلف في ذلك أيضاً إلى تقارير تقويمية لهذه البرامج أنجزتها مؤسسات أفريقية، مثل البنك الأفريقي للتنمية (ص 151-152).

مناقشة ختامية

توصل المؤلف، في نهاية كتابه، إلى منظور نقدي جديد، كان قد أعلن عنه في العنوان، يجسد منظوراً ديكولونياً للهجرات؛ لكونه يستحضر الوضعية ما بعد الكولونiale لفهم الهجرة التي اتسمت بفرض برامج المؤسسات الدولية على البلدان الأفريقية. إن المنظور الديكولونالي للهجرات

العربية

العروي، عبد الله. مفهوم الأيديولوجيا. ط 5. بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1993.

الأجنبية

Bancel, Nicolas et al. *Ruptures Postcoloniales: Les nouveaux visages de la société française*. Paris: La Découverte, 2010.